انعتاقُ الفِكر

سيما صقر – فلسطين

نَعْبُرُ من نفسِ الطريق، تتباينُ العقبات في صعوبتِها، كلٌّ منا يتذوق من الحياة صفعًا ليس بهين، لنعلم في نهاية المطاف أن هذا كلَّه كان ثمنا ندفعه مقابل تجرع كؤوس من الفخر بما أبدعناه، تجارة... نعم تجارةً ولو علم التّجار ما أربح هكذا صنف، تشتري فيه بضاعة لا تضاهيها كنوز الدنيا بثمن بخس.

أحبّها مرتبةً، منظمةً، موشحةً بأجمل الألوان؛ لطالما حَرَصْتُ على أن تكون مملكتي أعظم مملكةٍ، أنظر إليها فأحمد الله وأتذكر قول أمي: (ربك لا يضيع أجر أحد)، كم رأيت علامات تعجب واستفهام تتجه صوبي!

فينةً تزورني من مديريّ، وفينةً أخرى من زملائي زميلاتي من المعلمين، لم يستطيعوا مرةً أن يكتموا دهشتهم من طريقة تفكيري ونظرتي للصف الذي أدرسه، وأنا بدوري أضحك ساخرةً، أظنوا أنّني تكبدت العناء والمشقة لأصبح معلمةً لمجرد التفكير بصفي على أنه محض مقاعد، ولوح، وطلاب أسرد لهم ما أحفظه وأملي عليهم ما يفعلون؟! إنهم مُخطئون، بل غارقون في بحرٍ من الخطأ.

طيلة عشر سنوات من تعليم لم أغفلْ عنه قيد أنملة، بقيَ الشعور بالرضا يلازمني ولا يعتريه أي نقصٍ، ولا يتخلله شك، لكن حدث ما لم أتوقعه في يوم، جاء لصفّي طالب يدعى (معاذ)، كان أكثر من طالب، فأنا معلمة وأعرف طباع التلاميذ وعاداتهم أما معاذ فهو حقًّا شديد الاختلاف، هادئ لا يتكلم إلا عند اللزوم، يترفّل بأثواب الطيبة ويتحلى بأسمى الصفات، وعلاوة على ذلك فإن ذكاءه كان ظاهرًا للعيان مذ أول وهلةٍ رأيته فيها، كل حركة منه وإشارة أمارة جديدة على نبوغه، تبارك من خلقه لا يترك مسألة إلا ويفكُّ عقدتها، لكأنّه شمسٌ تنبلج هاربة من مكمنها تنير دروب الآخرين، ومثل كل عام أعلنت المدرسة اعتزامها على الذهاب في رحلة وأخبرت التلاميذ بأنّها ستكون إلى فلسطين المحتلّة، وأوكلوا إليَّ مهمة إحصاء الأعداد التي تنوي الذهاب، وكم كنت مستاءةً حال معرفتي بامتناع "معاذ" عن الذهاب، فرحت أقنعه بأن يرافقنا، فلبَّى رغبتي بكل أدبٍ وسرور.

ولمّا حان موعد الرحلة مضينا متوكِّلين، وبعدما تخطينا الجدار الفاصل بين الضفة والأراضي المحتلة قال لنا أحد الباعة اليهود -الذي يجيد العربية بلهجة ركيكة بعض الشيء-: "أهلا بكم في إسرائيل". صراحةً إن ما قاله لم يلفت انتباهي، أما الغريبة فهي ردة فعل "معاذ" الذي استشاط غضبا وقال للبائع:

"ومن صرَّح لك بهذا الاسم الخاطئ؟". فما كان مني إلا أن أمسكت بمعاذ وسحبته بعيدًا وشرعت أصرخُ في وجهه، وأُأَنِّبُه على كلامه وافتعاله للمشاكل _وهو طبعًا الواعي المدرك للموقف- ردّ بكل أدب واحترام: "آسف يا معلمتي،

ما سبق لي وأن سمعت أنَّ كلمة الحق افتعال للمشاكل، ثمَّ إنني فقط أردت التعرف إلى وجهة نظره، كما أنه يمكن لسؤال كهذا الذي سألته إياه أن يدفعه لإعادة التفكيرِ وترك الخزعبلات التي يتمسَّك بها". أنهى "معاذ" كلامه الصاعق ومضى مع الطلاب، وتركني في حالة يرثى لها، شعور غريب يهزّ وجداني، رعشة برد ترجف لها أناملي ونحن في عزِّ الصيف، تتشابك الأفكار في عقلي، ثم ها أنا أدخل في حالة من الصمت لآخر الرحلة.

عدتُ إلى بيتي مشتَّتةً، مرتبكةً، يائسةً، وأخذت أفكر في الذي قاله "معاذ"، إنه كان صادقًا، إذا ماذا؟ أأنا كاذبة؟ نعم، يجب أن أعترف بذلك فكيف أعلم طلابي في الصف قولَ الحق والشجاعة والتعبير عن الرأي، ثمّ أُأَنِّبُهم على صراحتهم وأدفعهم لدخول عالم من الخوف والجبن، فيصبحون سجناء تأسرهم قضبان الحتلال؟!

اتصلت بمديرِ المدرسة وأخبرتُه بأنني سآخذ إجازة في اليوم التالي، فقد كنت في أمسِّ الحاجة للجلوس مع نفسي والتفكير بجدية في معتقداتي، وإبصار سلبياتي قبل إيجابياتي لمعالجتِها والتخلُّص منها، ويا لتعاستي عند وصولي خبر انتقال "معاذ" لمدرسة أخرى في القرية المجاورة، حاولتُ اللقاء به دون جدوى، تمنيت لو أراه مرةً واحدةً فقط لأعتذرَ منه على ما بدر منِّي، على خيانتي البشعة لمهنتِي!

مُؤَكَّدٌ أنه شعر بالضيق من تصرفي الجاهل فقرَّر الابتعاد، بحثت عنه كثير حتى أنني ذهب لبيته فقال لي أهله بأنه يبيت عند جَدِّه ليسهل له الذهاب لمدرسته الجديدة.

أكملت حياتي ونويتُ إصلاح نفسي مع التغاضي عن الموقف الذي حصل، لكن كيف؟! فمعاذ ذهب مخلفًا وراءه جرحًا كبيرًا في قلبي، قلب المعلمة والفلسطينية والإنسانة، تسير الأيام وإذا بإرادة الله –سبحانه- تجمعني بمعاذ وألتقي به صدفة في المسجد الأقصى؛ فأعتذر منه وأخبره عن ندمي وخجلي الشديدين، فيقول لي: "لم تخطئي بحقي حتى تعتذري بل أخطأتِ بحق هذه الأرض التي تعيشين عليها".

قلت: "أو برأيك تقبل هي اعتذاري؟".

فيبتسم ابتسامة مشحونة بالألم ويقول: "كل هؤلاء الناس الذين ترينهم أخطؤوا بحقها، أفنبذتهم؟ أستبرأت منهم؟ لا والله بل ما زالت أحنَّ عليهم من أنفسهم".

ثم رحل وتركني في حالة انعتاق مع الذات وسرحت متأملةً بهذه الأرض، الذي لا ملجأَ لنا منها إلا إليها، ولا نجد حضنًا غيرها إلّا هي، وما المشكلة في أن يعلم الطالب معلمَه؟ لأول مرةٍ أفقه مفهوم الحرية، فالسجنُ ليس وحده من يأسر الإنسان بل يمكن للمرء أن يسجن في فكرة، أو خطأ حتى يأتي أحد ويعتق روحه منها!!

obeikandl.com